

موشّح قايِن أو أوّل جريمة قتل لألساندرُو سكارلاتي: معانٍ وعبر

Oratorio Cain ovvero Il primo omicidio

Alessandro Scarlatti

الأب سامي حلاق



الموشّح وارد في كتيّبٍ يحمل عنوان: «قايِن أو أوّل جريمة قتل: موسيقى دينيّة بسنّة أصوات، المايسترو ألساندرُو سكارلاتي، السنة 1706»، ولا يذكر الكتيّب المناسبة، بل يضيف «Trattenimento» (طقطوقة) وليس موشّحًا (Oratorio)، ما يبيّن أنّ العمل لم يتمّ تأليفه لأجل كنيسة بل لحفلٍ خاصّ. ويبدو أنّ العرض تمّ في البندقية، وقتّ الكرنفال الذي انتهى في 8 آذار (مارس) من السنة نفسها (1706). كما لا نجد اسم الشاعر الذي كتب الكلمات، وهذا أمر غريب. ففي الكلمات روحٌ وجرأة فريدتان.

الموضوع هو مأساة الاغتيال الأوّل في التاريخ ونتائجه على البشريّة. ففي القرنين السابع عشر والثامن عشر ألف عدد من الملحنين مقطوعاتٍ عن قصة قايِن وهابيل، سعوا فيها، كما يسعى الواعظ، إلى التأثير في مستمعيهم حول موضوع نتائج الخطيئة وثواب البراءة. كانت النصوص تُنشدُ باللاتينية كما هو

حال جياكومو كاريّسيّمي Giacomo Carissimi (1605-1674). أمّا سكارلاتّي فقد استعمل الإيطاليّة.

المعاني والعبر

إلى جانب موسيقى سكارلاتّي الرائعة تعكس النصوص بعض المعاني المذهلة حول الذنب والأخوة والسلام، وكيف أنّ الحرب والانتقام هما من وحي الشيطان حتّى وإن تمّ تبريرهما دينياً.

- ففي مرثي آدم، لا يُنكرُ آدم خطيئته ويلقي اللوم كلّهُ على حوّاء، بل يقرّ بإثمه: «يا لي من أبٍ عنيفٍ وزوجٍ متهورٍ». فخطأ الآخرين لا يعفي الشخص من مسؤوليّته تجاه الانجرار أو عدم الانجرار وراء الخطأ.
- وحوّاء أيضاً تتأمّل نتائج خطيئتها. فدائرة الأذى الذي ينتج من فعل الإنسان لا تنحصر به، بل تمتدّ إلى الجميع. لكلّ خطيئة بعد جماعيّ. وما ننسبه إلى السماء هو في الحقيقة منطق الأشياء: «أنا وحدي من خانت؛ مكتوب في السماء. إنّ العقاب للجميع، والجريمة جريمتي».
- يصوّر الموشح الصراع بين الأخوين قايين وهابيل بصفته صورة أخرى لصراع الإنسان مع الله، وهو صراع موضوعه السلطة. ففي حين أكل الجدان الأوّلان من الشجرة ليصيرا منافسين لله، ها هو قايين يثور على هابيل، ويطالب بحقه في تقديم الذبائح، لأنّه الابن الأكبر، وسلطة تقديم الذبيحة تعود إليه: «كلمات هابيل يا أبي هي فخر الجنون. إنّه الأصغر، ومن واجبي تهدئة الثأر الرهيب».
- ويلفت آدم انتباهه ولدّيه إلى الضلال المحدق. فالكبرياء لا يولّد أفعالاً صالحة: «القلب التقّي أهمّ من التقادم. إكرام الإله المحبّ هو النفس التائبّة. إنّها أعظم ذبيحة تهدّي غضبه».
- وبعد تقديم الذبائح، يغضب قايين غضباً شديداً، ويقع فريسة صوتيّين: صوت الله وصوت الشيطان. الله يلحّ على الرحمة، والشيطان يلحّ على الانتقام. الله

يتكلّم بسلطان، والشيطان يستعمل أسلوب الفتوى والتبرير. وبين الصوتين يتردّد صوتا آدم وحواء يخاطبان ولديهما:

حواء: أسمعان يا ولديّ المشورة الإلهية؟

آدم: أقوال الخالق ليست نصائح بل هي تعليمات.

حواء: إحفظا شرائع الربّ يا ولديّ.

آدم: أطيعا الربّ وأرضياه.

تأثيرات الوسط الدينيّ

يظهر من الحوار تأثير الأفكار الدينية الرائجة في ذلك العصر. ويمكننا أن نلخصها في ثلاث نقاط:

1- الكبرياء السابق والمسبّب القتل: ويظهر هذا الكبرياء في كلام آدم، إذ يعزو خطيئته إلى تصلّبه وعنفه. ويحدّر ولديه من هذا الكبرياء الذي يؤدّ العنف، والعنف يؤدّ القتل: « القلب التقيّ أهمّ من النقاد. فإكرام الإله المحبّ هو النفس النائبة. إنّها أعظم ذبيحة تهدئ غضبه. »

2- علامة قبول الله: إنّ السؤال الذي شغل بال كثير من المفسّرين: كيف عرف قاين وهابيل أنّ ذبيحة هذا قد رُفِضت، وذبيحة ذاك قد تمّ قبولها؟ وقد شاع في العصر الوسيط تفسير أنّ الدخان هو الدليل. فدخان الذبيحة المرضية يصعد إلى السماء. يقول هابيل في الموشح: « يا ولديّ، كيف تصعد مباشرة إلى العلى، ناري ولهبا؟ ». ودخان الذبيحة المرفوضة يكون ثقيلاً وينحدر إلى الأرض. يقول قاين: « ناري تشتعل ولكنّها تنحني، كثيفة وسوداء، يا لحظّي التعس! ».

3- الحوار بين العالم الآخر والأرض: إنّ القسم الأخير من الموشح. ثلاثة أصوات تأتي من العالم الآخر. صوت الله الذي يعبر عن سبب رضاه عن ذبيحة دون أخرى، وصوت الشيطان لوسيفورس (حامل النور)، الذي يأتي بشكلٍ حكيم ينصح قاين بالقتل، ويبرّر نصيحته بحججٍ منطقية: « السماء التي اختارتك [ابناً بكرًا] هي نفسها تقصيك. فالسما إداً تغشك، تخدعك. إحترقها لأنّها تحترق... »

أقتل هابيل، وإذا ما مات، ما الذي تفعله لك النجوم؟ ستذرف الدموع مع أهلك، ثم ستضيء مثل الشمس، فيكون كل شيء ملكك: القطعان والحيوانات، وسيكون كل الحب لك بعد الدموع». وفي النهاية يأتي صوت هابيل من السماء يطالب بالعدالة.

وينتهي الموشح بموسيقى رائعة من الندامة، موسيقى تستحق أن تُشرح لكل الفئات المتحاربة في كل البلدان، عسى أن يأتي الندم والتراجع عن العنف قبل أن يفوت الأوان.